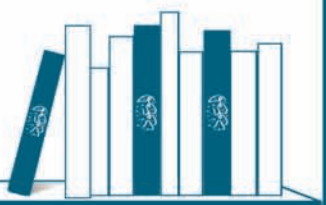
المهدوية والخلاص في الفكر الهندوسي

قراءة نقدية استراتيجية





مجتبىٰ السادة

مقدمة تمهيدية:

يعدّ مفهوم الخلاص تصوراً فكرياً يعكس رغبة إنسانية ماسة لإعادة تنظيم الواقع وتجاوز تحدياته الراهنة ضمن أفق أخلاقي وتاريخي أوسع.. وفي هذا الإطار، تبرز الرؤية الإسلامية (المهدوية) بوصفها وعداً إلهياً بظهور مصلح يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، غير أنَّ هذه الرؤية السماوية ليست استثناءً معزولاً في جغرافيا الفكر البشري.

بيد أنَّ السؤال الجوهري الذي يفرض نفسه في سياق الحوار الحضاري المعاصر هو: كيف تعاملت الحضارات غير الإبراهيمية – وفي مقدِّمتها الحضارة الهندية العريقة – مع هذا التوق الإنساني العميق نحو الخلاص؟ وهل يمتلك نموذجها الخاص رؤية محددة عن مفهومي (المخلص) و(الخلاص)، وإن غلِّفت بسياق فلسفي أو عقائدي مغاير تماماً لما ألفناه؟

المحور الأوَّل: ينطلق هذا البحث من تساؤل مركزي حول كيفية تصوُّر الفكر الهندوسي لمفهومي (الخلاص) و(المخلص)؟ وإلىٰ أيِّ مدىٰ يمكن اعتبار رؤيته متقاطعة أو متباينة مع (المهدوية) الإسلامية في بعدها الاستراتيجي؟ ويتفرَّع عن هذا التساؤل جملة من المباحث التمهيدية:

- لماذا (الفكر الهندوسي) وليس (الفكر الهندي)؟

إنَّ استخدام مصطلح (الفكر الهندوسي) يأتي لضبط النطاق المعرفي للبحث؛ فالهندوسية التي يعتنقها قرابة (٨٠٪)[١] من سكان الهند (ما يزيد على مليار إنسان)، ونحو (٢ , ١ مليار) إنسان عالمياً، تُمثّل إطاراً عقائدياً وفلسفياً محدّداً وركناً أساسياً في الهوية الهندية، لكنَّها لا تستوعب كامل التنوع الفكري الذي يضم الإسلام والمسيحية والسيخية والبوذية. لذا، فنحن بصدد دراسة نسق اعتقادي خاص[٢] لا فكر جغرافي عام.

- كيف تؤثِّر الرؤية الهندوسية للزمان والتاريخ (الدائرية) على تصوُّر مفهوم الخلاص؟ والتي تختلف جوهرياً عن رؤية النموذج الخطي السائد في الأديان الإبراهيمية.

- كيف تتبدى رؤية الهندوسية للخلاص بأنواعه: سواء على الصعيد الشخصي أو صعيد البشرية بأسرها؟

- ما هي الجذور الفكرية والفلسفية التأسيسية لهذه الرؤى الخلاصية؟

نبحث في كيفية تبلور هذه الرؤى في نصوص (الفيدا والأوبانيشاد والبورانا)[٣]، وكيف تطورت عبر التاريخ لتصوغ نموذجاً فريداً يمزج بين

---

١. طبقاً لإحصائيات عام ٢٠١١ يمكن تحديد الديانات الرئيسية في الهند بالشكل التالي: الهندوس ٧٩,٨٪ والمسلمون ١٤,٢٪ والمسيحيون ٢,٣٪ والسيخ ١,٧٪ والبوذية ٠,٧٪ والجاينية ٠,٤٪ والآخرون ٠,٩٪ من المجموع.. المصدر:
https://www.pewresearch.org/short-reads/٢٠٢١/٠٩/٢١/key-findings-about-the-religious-composition-of-india

٢. إنَّ معظم المصطلحات والمسميات الواردة في هذا البحث هي مسميات غير عربية / هندية، لكنَّها تمثل المفاهيم الأكثر شهرة وتداولاً في الثقافة الهندوسية، ويُشار إليها غالباً في الدراسات الهندية والإنجليزية.

٣. نصوص الفيدا والأوبانيشاد والبورانا: تمثل المراجع الأساسية للتراث الديني والفلسفي الهندوسي.
- الفيدا هي أقدم النصوص وتحتوي على تراتيل وطقوس وتعليمات دينية.
- الأوبانيشاد هي نصوص لاحقة تركز على الفلسفة والبحث الروحي العميق حول طبيعة الذات والكون. ←

النزعة التحررية الروحية الفردية وبين النبوءات الكونية؟

المحور الثاني: تكمن أهمية البحث في كونه يفتح نافذة علىٰ نسق فلسفي ضارب في القدم، مستقل في بنائه ومنطلقاته، حيث يعالج الخلاص باعتباره عملية خاصة ومركبة، وما يميز هذه الرؤية هو فردية منهجها وتعقيدها الذي يغاير النماذج الخلاصية المألوفة، مما يعد مدخلاً لتعزيز المبدأ القرآني[1] للتعارف بين الشعوب، وتأصيل مشروع تعريف المهدوية للحضارات الأخرىٰ.

يسعىٰ البحث إلىٰ تحقيق الأهداف التالية:

- تعميق الفهم المقارن: مقابلة الرؤية الإسلامية لمفهوم الخلاص مع نموذج مغاير تماماً، مما يؤكد واقعية الأطروحة المهدوية وتفوقها الفكري والحضاري في قدرتها علىٰ الجمع بين الغيب والواقع، وبين الفرد والمجتمع.

- الكشف عن المشترك الإنساني: البحث عن الدلالات الإنسانية الكبرىٰ التي تدفع الحضارات المتباعدة زمنياً وجغرافياً إلىٰ تخيل (المخلص) كضرورة حتمية لمواجهة اليأس الوجودي.

- رصد التحولات التاريخية والواقعية: تتبع كيفية توظيف مفهوم (المخلص الموعود) في تشكيل الثقافة الهندوسية، ومدىٰ تأثيره في حركات الإصلاح الديني واليقظة الوطنية الهندية.

وعليه، فإنَّ الغاية الأساسية من هذا البحث تتمثل في الكشف عن مدىٰ تغلغل رؤية الخلاص في الوعي والثقافة الهندوسية، وفحص مدىٰ

← - البورانا هي موسوعات أسطورية شعبية تحتوي علىٰ قصص الآلهة والأبطال وتفاصيل الخلق والنبوءات الكونية.

١. قال تعالىٰ: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثىٰ وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا﴾ (الحجرات: ١٣).

تماسكها الداخلي وعلاقتها بالنسق الكلي للرؤية المستقبلية وتأثيرها على الفرد والمجتمع الهندي، كما يسعى إلى إجراء مقارنة نقدية جادة مع الرؤية المهدوية الإسلامية، بغية بلوغ فهم أعمق بخصوصية وتميز كل نموذج، وذلك من خلال تتبع مسارات التشابه والاختلاف في التصوُّرات المتعلِّقة بالخلاص الفردي للإنسان أو الكلِّي للبشرية كافة.

وجوهر المسألة: أن فهم الخلاص في الفكر الهندوسي يضعنا أمام خريطة فكرية مختلفة، مما يجعل دراستها إثراءً لا غنى عنه لأيِّ حوار حضاري جاد حول مستقبل الإنسانية ومآلاتها الأخلاقية.

مفهوم الخلاص في الفكر الهندوسي:

يتأسَّس مفهوم الخلاص في الفكر الهندوسي[١] على ثنائية[٢] تجمع بين

---

١. المصادر والمراجع الرئيسية: تستند مفاهيم الخلاص في الفكر الهندوسي إلى تراث ديني وفلسفي هائل، تبرز أهم ملامحه في النصوص التالية:

أ- نصوص الأوبانيشاد (The Upanishads): تعد المصدر التأسيسي الأوَّل لمفهوم الخلاص الفردي (موكشا)، حيث وضعت الأُسس الفلسفية للتحرر من دورة التناسخ عبر المعرفة والوعي بالذات.

ب- نصوص البورانا (The Puranas): وهي المصدر الرئيس الذي فصّل مفهوم الخلاص الكوني وشخصية (كالكي)، وقدمت وصفاً دقيقاً لعصور الزمان الأربعة (اليوغات)، متنبئة بظهور المخلص) كالكي(في نهاية هذا العصر.

ج- نصوص الباغافاد غيتا (Bhagavad Gita): من أهم المصادر التي شرحت سبل الوصول إلى الموكشا، وأسست لمبدأ)التجسدات الإلهية((الأفاتار) كضرورة لإصلاح الخلل الكوني، وهو ما يمهد لفكرة ظهور (كالكي) كخاتم لهذه التجسدات.

د- نصوص كالكِي بورانا (Kalki Purana): مخصّص بالكامل لسيرة المخلص الموعود؛ يستعرض ظروف ظهوره، ومهامه في محاربة الظلام وقوى الشر، وتأسيسه لدورة زمنية جديدة.

المصدر: كيم نوت، الهندوسية، ترجمة: أميرة الصادق، ص٢٩.

٢. انظر إلى كتاب: مقدمة في تاريخ الأديان، تمام الأيوبي وزياد السلامين، ص٢٥٥ - ٢٥٦.

الخلاص الفردي (الموكشا)[١] والخلاص الكوني الجماعي (كالكي)[٢]؛ وهما يمثِّلان معاً أطروحتين مختلفتين من جهات، حيث يمثِّل كل منهما بُعداً مختلفاً من رحلة الإنسان والكون نحو النجاة الشخصية والتحرُّر من دائرة الألم والشر.

أوَّلاً: الخلاص الفردي (التحرر الداخلي):

يُدرك الخلاص على المستوى الشخصي[٣] (الموكشا) بوصفه الغاية الحتمية التي تختم دورة الحياة والموت والمعاناة المتكرِّرة، والمعروفة بـ(السامسارا)[٤] أو التناسخ، ولا يتأتَّى هذا التحرُّر[٥] إلَّا بالانعتاق من القيود والنزعات المادية والمعنوية، فيبلغ الإنسان حالة الروح المطلقة متى أدرك حقيقة وحدته مع الوجود الأسمى.

---

١. الموكشا (Moksha): تعني النجاة أو التحرر النهائي، وهي الغاية الأسمى للوجود البشري في الفلسفة الهندوسية؛ إذ تشير إلى انعتاق الروح من قيود دورة (السمسارا) (التناسخ) ومن كل أشكال المعاناة المادية والروحية، ويتحقَّق هذا الخلاص بالاتِّحاد التام مع الحقيقة المطلقة (البراهمان)، مما ينهي رحلة الروح في عالم الفناء والولادات المتكررة. المصدر: موسوعة تاريخ الأديان، فراس السواح، ص٨٤.

٢. كالكي (Kalki): هو (الأفاتار) العاشر والأخير (المستقبلي) للإله فيشنو، الذي تتنبأ النصوص بظهوره في نهاية عصر (كالي يوغا) لتطهير العالم من الظلم والفساد. يمثِّل (كالكي) شخصية المخلص الموعود الذي سيضع حداً لآلام البشرية ويفتتح حقبة جديدة من السلام والطهارة.

٣. للاطِّلاع بإيجاز على أهم مظاهر الثنائية في عقيدة المنقذ في الديانة الهندوسية، يُنظر: نور ناجح حسين، المنقذ في الأديان، ص١٦٢ - ١٦٧.

٤. السمسارا: (Samsara) هي دورة (التناسخ) أو (التقمص) التي تمر بها الروح عبر ولادات متكررة، ويشير هذا المفهوم إلى أن الروح لا تنتهي بموت الجسد، بل تنتقل لتتجسَّد من جديد في كائن آخر ضمن سلسلة مستمرة من الولادة والموت. تظل الروح حبيسة هذه الدورة، ويتحدَّد مسارها ومستواها في الحياة التالية بناءً على قانون (الكارما) (نتائج أفعال الإنسان وسلوكه)، المصدر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، جفري بارندر، ص١٢٤.

٥. إيمان علي محمد الغنانيم، الألوهية في الديانة الهندوسية، ص٢٢٣.

وهذا الإدراك المباشر لوحدة الروح الفردية (الآتمان) مع الروح الكونية (البراهمان) متاح في أي لحظة، إذ إنَّ الخلاص في جوهره ليس سوىٰ تحرّر من الوهم (مايا)[١] ومن الجذر الأعمق للجهل الأساسي (أفيديا)[٢] الذي يوهم الفرد بأنَّه كيان منفصل عن أصل الوجود، فبالتأمُّل العميق والمعرفة اليقينية تذوب النفس في الحقيقة العليا، فتزول معاناة التعلُّق بالعالم المادي المتقلب، وبذلك يكتمل تحقيق هذا الخلاص الذاتي.

ثانياً: الخلاص الكوني (التدخل الإلهي):

يرتبط هذا البعد بظهور شخصية مستقبلية موعودة تدعىٰ (كالكي)، وهو تجسيد إلهي (الأفاتار)[٣] ينتظر ظهوره في نهاية الزمن الحالي (كالي يوغا)[٤] عصر الظلام، وتمثل هذه الشخصية رمزاً للتدخل الإلهي في اللحظات الحاسمة لتصحيح مسار تاريخ البشرية؛ إذ يُرتقب قدومه عندما تصل القيم الإنسانية إلىٰ ذروة انحدارها، وانتشار الظلم والفساد، وتتمثَّل مهمة هذا المخلِّص في تطهير العالم من قوىٰ الشر، ونقل البشرية إلىٰ مرحلة جديدة يسودها العدل والسلام.

١. مايا (Maya): هي الحالة التي تجعلنا نرىٰ العالم المادي المتقلب وكأنَّه الحقيقة الوحيدة والنهائية، بينما هو في الواقع مجرَّد (ستار) أو (مظاهر زائلة) تخفي خلفها الجوهر الثابت للوجود (البراهمان).

٢. أفيديا (Avidya): تُعرف بـ(الجهل الجوهري) أو الوهم الروحي، وهي حالة من عدم الإدراك تمنع الإنسان من معرفة طبيعته الحقيقية ووحدته مع الأصل الكلي للكون (البراهمان). يعتبر هذا الجهل هو السبب الجذري لاستمرار المعاناة وبقاء الروح أسيرة لدورة التناسخ، وبدون تبديد هذا الوهم لا يمكن للإنسان بلوغ مرحلة التحرر (الموكشا).

٣. الأفاتار: (Avatar) مصطلح يعني حرفياً (النزول)، ويقصد به التجسد المادي للإله (غالباً الإله فيشنو) في هذا العالم، يظهر الأفاتار في شكل مادي (بشري أو حيواني) لتحقيق غاية إلهية محددة، تتمثل غالباً في استعادة النظام الكوني وإرساء قيم الفضيلة (الدارما).

٤. كالي يوغا (Kali Yuga): هو العصر الرابع والأخير ضمن الدورة الزمنية الكبرىٰ للكون، ويعرف بـ(عصر الظلام) أو زمن النزاع والجهل والانحطاط الأخلاقي. ووفقاً للمعتقد الهندوسي، فإننا نعيش حالياً في هذا العصر الذي سينتهي بظهور المخلص (كالكي)، لتبدأ بعده دورة زمنية جديدة يسودها النقاء.

يعبر هذا التصوُّر عن أمل الوعي الجماعي باستعادة التوازن المفقود، مما يمنح الوجدان الهندوسي رؤية تفاؤلية عن نهاية دورات الزمن المظلمة، وتمهيداً لبدء عصر جديد من النقاء والفضيلة.

بهذا، يجمع مفهوم الخلاص في الهندوسية بين سعي داخلي للتحرر الشخصي، وانتظار خارجي لتدخل إلهي يصلح شؤون العالم، في رؤية تربط بين مصير الفرد ومسار الوجود البشري كله ضمن حركة زمن دائرية تهدف إلىٰ استعادة النظام الكوني الأصيل.

ثالثاً: الخصوصية الفلسفية والتاريخية[١]:

يمثِّل مفهوم الخلاص في الفكر الهندوسي نسيجاً فلسفياً فريداً، تشكل عبر منظومة من التصوُّرات اللاهوتية التي تبلورت علىٰ مدىٰ آلاف السنين (نحو ٤٠٠٠ سنة)[٢]، ويختلف هذا المفهوم جوهرياً عن النماذج الإبراهيمية القائمة علىٰ (الخلاص من الخطيئة) أو (النجاة في الآخرة) أو (القضاء علىٰ الظلم ونشر التوحيد والعدل)، فهو لا يرتبط بحدث نهائي في آخر الزمن -حسب الرؤية الخطية- بل يرتبط بنظرة دائرية تعيد صياغة الحياة من جديد.

بشكل عام ينظر الفكر الهندوسي إلىٰ الكون ككل موحِّد، والإنسان كجزء لا ينفصل عنه، ولذا يفهم الخلاص علىٰ أنَّه تحرر (موكشا) من قيود التناسخ، ومن ثم اندماج الروح الفردية (الآتمان)[٣] في الوجود الكلي

١. للتوسع أكثر في أهم المعتقدات والطقوس، يُنظر: عصمت نصار، نظرات في مقارنة الأديان، ص١٠٩-١١٣.

٢. حماد د. إبراهيم زيدان، الخلاص في الديانات الوضعية الهندية، ص٤٩١.

٣. الآتمان (Atman): يمثل الذات الجوهرية أو الروح الخالدة الكامنة في كل كائن. وفي الفلسفة الهندوسية، يُعتبر (الآتمان) جوهر الوجود الفردي النقي والمستمر، وهو الحقيقة التي تتمايز عن الهوية الشخصية المكتسبة أو الجسد المادي المؤقت.

المطلق (البراهمان)[١]، وهذا التحرُّر هو ذروة المسيرة الروحية وغايتها النهائية والخلاص الذي تنشده.

رابعاً: الخلاص متاح للجميع وذو مسالك متعدِّدة:

يتميَّز التصوُّر الهندوسي بالمرونة والشمول، إذ يقدِّم نموذجاً إنسانياً ترىٰ الخلاص استحقاقاً متاحاً لكلِّ كائنٍ ينشدها، متجاوزاً حواجز الهوية الدينية والجغرافية، فالإنسان هنا ليس خاطئاً يحتاج إلىٰ غفران، بل جاهلٌ يحتاج إلىٰ وعي يستكشف من الداخل لا يفرض من الخارج، ولأنَّ الطباع البشرية تتباين بتباين الأمزجة، قدَّمت الفلسفة الهندوسية مسالك (مارغا) متنوِّعة[٢] تُناسب كل استعداد، وأهمّها[٣]:

- طريق المعرفة للمفكرين، ويتحقَّق بدراسة نصوص (الفيدا، الأوبانيشاد)[٤] والتأمُّل في الذات والكون.

---

١. البراهمان (Brahman): هو اسم الله في اللغة السنسكريتية، وهو الحقيقة المطلقة والوجود الكلي النهائي الذي يستوعب الكون بأسره. يُنظر إليه بصفته المصدر الأزلي وغير المحدود لكل ما في الوجود، متجاوزاً بذلك كل الأوصاف المادية والتعدديات الظاهرية. يوجد (البراهمان) في عمق كل كائن حي، ويُعد المبدأ الأوَّل للكون والنفس الإنسانية، وتنبثق عنه كافة التجليات والقوىٰ الإلهية الكبرىٰ، مثل (فيشنو) و(شيفا). المصدر: مقدمة في تاريخ الأديان، الأيوبي والسلامين، ص٢٤٧.

٢. للتوسُّع أكثر في مسالك تحقيق الغاية، وطرقه الأربعة، يُنظر: هوستن سميث، أديان العالم، ص٥٤-٨٩.

٣. السواح، د.فراس، موسوعة تاريخ الأديان، ج ٤، ص٨٤-١٠٤.

٤. الفيدا: مجموعة النصوص الدينية الكبرىٰ التي تشكل أقدم طبقات الأدب السنسكريتي وأقدس نصوص الهندوسية. تضم أربعة فيدا: (الريج، الياجو، السام، والأتور)، ولكل فيدا أربعة أقسام فرعية: (السامهيتا، البراهمة، الأرانياكا، والأوبانيشاد) والفرع الأخير -أوبانيشاد- عبارة عن: نصوص تناقش التأمل والفلسفة والمعرفة الروحية. المصدر: فصول في أديان الهند، د. محمد ضياء، ص٢٠-٢٩؛ كولر جون، الفكر الشرقي القديم، ص٣٥؛ ديورانت، قصة الحضارة، ج٣ من م١، ص٣٨؛ عصمت نصار، نظرات في مقارنة الأديان، ص١٠٥-١٠٧.

– طريق العمل للناشطين، ويقوم على أداء الواجب بتجرُّد تام ودون انتظار للنتائج أو الثواب، وهو ما يُعرف بـ(الفعل غير الأناني) كما ورد في (البهاغافاد غيتا).

– طريق التقوىٰ والإخلاص (بهاكتي) لأصحاب النزعة العاطفية، ويقوم علىٰ الحب والتسليم المطلق لإله شخصي (مثل فيشنو[١] أو شيفا[٢])، وهو المسلك الأكثر شيوعاً، وتُعد (البهاغافاتا بورانا) من مراجعه الأساسية.

– طريق التأمُّل للروحانيين، ويعتمد علىٰ نظام دقيق لتركيز العقل وضبط الجسد، والتحكم بالنفس، للوصول إلىٰ حالة الاتِّحاد الكلي مع المطلق، وقد أُسِّس في (يوجا سوترا لباتانجالي).

إنَّ هذا التعدُّد يكرس مبدأ الجهد الفردي لتحرّر النفس من الجهل، مؤكِّداً أنَّ الحقيقة واحدة وإن تعدَّدت سبل الوصول إليها، في تقارب عملي يتناغم مع بعض التصوُّرات الصوفية عند المسلمين أو الرهبانية في المسيحية.

بعض النصوص الهندوسية الاستشهادية عن المخلص كالكي:

تقدّم النصوص الدينية الهندوسية، عبر مراحل تدوينها[٣] المختلفة، رؤىٰ تتحدَّث بشكل مباشر أو ضمني عن مفهوم الخلاص عبر ظهور المخلِّص (كالكي) أو عبر مبدأ التجسيد الإلهي (أفاتار) الذي ترتكز عليه فكرة الخلاص الكوني.

---

١. فيشنو: يعني حرفياً (المنتشر)، وهو الرب الذي يتولىٰ حفظ الكون وحمايته في الثالوث الهندوسي، ويعتبر في بعض المذاهب الأعلىٰ الواحد. المصدر: مقدمة في تاريخ الأديان، الأيوبي والسلامين، ص٢٤٦.

٢. شيفا: يعني حرفيا (المبارك)، والمعروف أيضاً باسم (مهاديفا) وهو أحد الآلهة الكبرىٰ، ويمثل قوة (التدمير) الضروري الذي يمهد الطريق لإعادة خلق الكون في نهاية الدورات الزمنية البعيدة جداً. المصدر: مقدمة في تاريخ الأديان، ص٢٤٦.

٣. للتوسُّع أكثر في التعريف بالكتب المقدسة لدىٰ الهندوس، يُنظر: د. أحمد شلبي، أديان الهند الكبرىٰ، ص٧٣-٩٢.

وفيما يلي نماذج[١] استشهادية مركزة:

١ - النص الوارد في البهاغافاد غيتا (الفصل ٤، الذكر ٧-٨)[٢]: (يَا بْهَارَاتَا؛ كُلَّمَا انْحَطَّ الدَّارْمَا (الفضيلة)، وَارْتَفَعَ الأَدْهَارْمَا (الرذيلة)، أُظْهِرُ نَفْسِي فِي هَذَا الْعَالَمِ. أُظْهِرُ نَفْسِي مِنْ حِينٍ لِآخَرَ لِحِمَايَةِ الصَّالِحِينَ، وَلِتَدْمِيرِ الشِّرِّ، وَلِإِرْسَاءِ الْفَضِيلَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ...).

الدلالة: يُعد هذا النص الأساس المركزي لمبدأ التجسيد الإلهي الدوري، فهو يعلن أنَّ تدخل الإله (فيشنو) في التاريخ البشري هو استجابة حتمية لانحدار الفضيلة وانتشار الظلم، مما يمهد فلسفياً لفكرة ظهور مخلّص نهائي (كالكي) عندما يبلغ الانحدار ذروته.

٢ - النص الوارد في كالكي بورانا (الفصل ١، القسم ٢، النص ٥)[٣]: (فِي نِهَايَةِ عَصْرِ الْجَهْلِ (كالي يوغا)، سَيُولَدُ كَالْكِي، ابْنِ فِيشْيُو هَايَسَا، فِي قَرْيَةِ شَمْبَهَالا. سَيَكُونُ حَكِيماً، وَقَائِداً عَسْكَرِيّاً، مُحَطِّماً لِلشِّرِّ وَالْجَبَابِرَةِ...).

الدلالة: يقدم هذا النص التفصيل النبوئي التأسيسي لشخصية كالكي، مؤكداً على طبيعته المزدوجة: الروحية (الحكيم) والعسكرية (المحارب)، كما يحدّد نسبه الأسطوري وموطنه الرمزي، ويصوغ مهمته المركزية في الإطاحة بالقوى الفاسدة.

٣ - النص الوارد في الفيشنو بورانا (الكتاب ٤، الفصل ٢٤)[٤]: (عِنْدَمَا تَتَنَاكَرُ الْقِيَمُ، وَيَتَحَوَّلُ الْقَاضِي إِلَى لِصٍّ، وَيَخْتَلِطُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، فَإِنَّ الْإِلَهَ فِيشْنُو

١. ونقتصر في هذا المقام على خمسة نصوص استشهادية فحسب، مراعاة لضوابط الإيجاز في الورقة البحثية، وهي نصوص كفيلة بكشف تجلّيات شخصية (كالكي) بوصفه المخلّص المنتظر في المتن التراثي الهندوسي.

٢. The Bhagavad Gita, Chapter 4, Verses 7-8, Compiled by Dr: Giridhar Boray, p.118.

٣. Kalika Purana, Chapter 1, Section 2, Text 5, translated by B.N.Shastri.

٤. Vishnu Purana, Book 4, Chapter 24, translated by H.H.Wilson, P.496.

سَيَتَجَسَّدُ فِي صُورَةِ كَالْكِي لِيَسْتَعِيدَ النِّظَامَ الْإِلَهِيَّ (العادل) عَلَىٰ الْأَرْضِ...).

الدلالة: يبرز هذا النص العلاقة السببية بين التدهور الأخلاقي الملموس وظهور المخلّص، فهو لا يصف حدثاً غيبياً مجرداً، بل يجعل من تجسد كالكي استجابة عن أزمة قيم كبرىٰ تعصف بالبشرية، ويؤكّد علىٰ دوره التطهيري بصفته مستعيداً للتوازن الكوني (الدارما) بعد اختلاله.

٤ - النص الوارد في أغني بورانا (الفصل ١٦، النصوص ٨-١٠)[١]:

(سَيَظْهَرُ كَالْكِي فِي نِهَايَةِ كَالْي يُوغَا، مُتَسَلِّحًا بِقُوَّةِ النُّورِ، لِيَقُودَ الْبَشَرِيَّةَ إِلَىٰ النَّقَاءِ - سَيَرْكَبُ حِصَاناً أَبْيَضَ سَرِيعاً كَالْفِكْرِ، وَيَحْمِلُ سَيْفاً نَارِيّاً، لِيُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنَ الظُّلْمِ، وَيَبْدَأَ عَصْرَ الْحَقِيقَةِ مِنْ جَدِيدٍ...).

الدلالة: يرسخ هذا النص الصورة الرمزية والبطولية الأكثر شيوعاً لـ(كالكي) في الخيال الشعبي، فالحصان الأبيض والسيف المشتعل يرمزان إلىٰ النقاء الإلهي والحكم القاطع. وتؤكد هذه الصورة علىٰ طبيعته بصفته محارباً وقاضياً إلهياً، وليس معلماً روحياً تقليدياً، حيث تُجسِّد مهمته الحسم الميداني - وفق الرؤية الأسطورية - لتطهير الأرض وتمهيد الطريق لعصر جديد، كما يشير مصطلح (قوة النور) إلىٰ البعد الروحي المتجذر في شخصيته.

٥ - النص الوارد في فيشنو بورانا (الكتاب الرابع، الفصل ٢٤)[٢]:

(عِنْدَمَا تَقْتَرِبُ مُمَارَسَاتُ الفِيدَا وَنُظُمُ القَانُونِ مِنَ الزَّوَالِ، وَيُدْنُو نِهَايَةُ عَصْرِ كَالِي، يَنْزِلُ جُزْءٌ مِنْ ذَلِكَ الكَائِنِ الإِلَهِيِّ (فيشنو)، المُتَأَصِّلِ فِي طَبِيعَتِهِ الرُّوحِيَّةِ، إِلَىٰ الأَرْضِ. سَيُولَدُ فِي عَائِلَةِ فِيشْنُو يَاسَاسَ البَرَاهِمِيَّةِ البَارِزَةِ مِنْ قَرْيَةِ سَامْبَالَا، بِاسْمِ كَالْكِي، مُتَّصِفاً بِالقُدُرَاتِ الثَّمَانِيَةِ الخَارِقَةِ. بِقُوَّتِهِ الجَبَّارَةِ، سَيُهْلِكُ جَمِيعَ الأَشْرَارِ وَاللُّصُوصِ وَكُلَّ مَنِ انْغَمَسَ فِي الإِثْمِ. ثُمَّ يُعِيدُ إِرْسَاءَ العَدْلِ

١. Agni Purana, Chapter 16, Verses 8-9, translated by M.N.Dutt.

٢. Vishnu Purana, Book 4, Chapter 24, translated by H.H.Wilson, P.498.

عَـلَىٰ الأَرْضِ، فَتُوقَـظُ عُقُـولُ مَـنْ يَعِيشُـونَ فِي نِهَايَـةِ عَـصْرِ كَالِي، وَتَكُـونُ صَافِيَـةً كَالْبِلَّـوْرِ...).

الدلالـة: يقـدم هـذا النـص الوصـف الأكثـر تفصيـلاً لظهـور كالكـي، جامعاً بـين الأبعـاد التالية:

- البُعد الغيبي: كتجسيد لجزء من الكائن الإلهي الأزلي.
- البُعـد الاجتماعـي: تحديـد ميـلاده في عائلـة براهمنيـة مرموقـة وموطنـه (سـامبالا).
- البُعد الإعجازي: اتصافه بالقدرات الخارقة.
- البُعد القتالي: مهمته الإهلاكية للتخلص من الفاسدين.
- البُعـد الإصلاحـي: هدفـه النهائـي هـو إعـادة إرسـاء العـدل وإنقـاذ البشريـة، والانتقـال إلىٰ عـصر الحقيقـة.

ملاحظـة تحليليـة: تقـدم هـذه النصـوص الهندوسـية ملامـح رؤيـة متكاملـة للمخلّـص المنتظـر، بوصفـه تجليـاً إلهيـاً (كالكـي) ينهـي زمـن الظلـم ويؤسِّـس لعهـد العدالـة، مشـكلاً بذلـك نموذجـاً خلاصيـاً كونيـاً يتقاطـع مـع الثقافـة الدينية الإنسـانية عـبر مختلـف الحضـارات.

ومـع ذلـك، يظـل هـذا النمـوذج رهـين طابعـه الأسـطوري المرتبـط بالزمـن الكـوني الـدوري (نهايـة عـصر الظلمـة والجهـل)، ممـا يجعلـه مفهومـاً مؤجّـلاً ومجـرَّداً.

وهـذا مـا يميِّـزه لافتقـاده إلىٰ أي إطـار تشريعـي أو عمـلي يوجّـه سـلوك المجتمـع الهنـدوسي تمهيـداً لذلـك الظهـور.

وبنـاءً عليـه، لا نجـد إمكانيـة لتحويل هـذه الأطروحـة أو النمـوذج الخلاصي إلىٰ برنامـج عمـلي ملمـوس في الحـاضر، بخـلاف النـماذج الخلاصيـة ذات الزمـن

الخطي والغائي، كالمهدوية الإسلامية التي تربط الانتظار بضرورة الاستعداد الأخلاقي والفاعلية الحركية.

التمييز الجوهري بين رؤىٰ الخلاص: مقارنة استراتيجية:

تمثِّل مفاهيم الخلاص في الأديان الكبرىٰ[١] تعبيراً عن رؤيتها للوجود والإنسان وغايته، ورغم اشتراكها في السعي لانتشال الإنسان من المعاناة، فإنَّها تختلف في تشخيص أصل المشكلة ومنهج الحل، يتميَّز الخلاص الهندوسي بأنَّه وجودي وفردي في جوهره، قائم علىٰ المعرفة الداخلية والتحرُّر من الجهل (أفيديا)، لا علىٰ الغفران أو نشر التوحيد والعدل.

فالرؤية الهندوسية ترىٰ العالم مساراً للتعلم لا ساحة صراع بين الخير والشر، وذلك ضمن زمن دائري متكرِّر لا مكان فيه لـ(معركة فاصلة) أو (قيامة عامة) بالمعنىٰ السماوي الشامل.

محدَّدات الخلاص الهندوسي في البنية والفاعلية:

١ - خلاص هروب لا إنجاز: يهدف إلىٰ التحرُّر من العالم (السمسارا)، وليس الإصلاح فيه، مما يولد نزعة اعتزالية لدىٰ الفرد.

٢ - المشكلة إدراكية لا أخلاقية: سبب المعاناة هو الجهل بالذات الحقيقية، لا الخطيئة، والحل يكون بالوعي لا بالغفران والتوبة.

٣ - غائية فردية محضة: الخلاص النهائي (موكشا) إنجاز فردي بحت، وحتَّىٰ المخلص كالكي لا يمنحه للأفراد، بل يقتصر دوره علىٰ استعادة التوازن الكوني العام.

---

١. الأكبر من حيث عدد الأتباع في العالم: أوَّلاً: المسيحية حوالي ٢,٤ مليار نسمة (٣١٪)، ثانياً: الإسلام حوالي ٢ مليار نسمة (٢٥٪)، ثالثاً: الهندوسية حوالي ١,٢ مليار نسمة (١٥٪). المصدر: تقديرات ديموغرافية استناداً إلىٰ تقارير: مركز بيو للأبحاث الأمريكي، وموسوعة بريتانيكا البريطانية.

٤ - الزمن الدائري المضعف للفعل: الدورات الزمنية اللانهائية تفقد الإصلاح الاجتماعي إلحاحه، حيث يترك الحل لانتهاء العصر وظهور (كالكي).

٥ - غياب المشروع الحضاري الفاعل: يؤدِّي التركيز على الخلاص الفردي ومفهوم الزمن الدائري إلىٰ ضعف الفاعلية الجماعية التغييرية، مما يبقي فكرة كالكي رمزاً مثالياً غير قادر علىٰ تحريك عجلة التاريخ.

المنطلقات الفكرية والجذور الفلسفية للرؤية الهندوسية للخلاص:

لا يمكن الإحاطة بمفهوم الخلاص في الفكر الهندوسي دون استيعاب القاعدة الفلسفية الكلية التي ينبثق منها، فهي بنية تراكمية ومتشعبة تشكَّلت عبر آلاف السنين، وتقدَّم رؤية للوجود والخلاص تختلف جوهرياً عن رؤىٰ الأديان السماوية، وتجدر الإشارة إلىٰ أنَّ الرؤية الهندوسية تقوم علىٰ ثلاثة أركان مركزية، تحدّد معاً غاية الوجود البشري وطريق خلاصه، سواء علىٰ المستوىٰ الفردي أو الكوني.

الركن الأوَّل: مفهوم المطلق - الوحدة التي تتجاوز الثنائية:

في صميم الفكر الهندوسي[1] يقف مفهوم (براهمان)[2] الحقيقة المطلقة، والوجود الكلِّي، والمبدأ الأسمىٰ الذي لا يتغيَّر، والذي منه ينبثق كل شيء وإليه يعود، البراهمان ليس إلهاً شخصياً بالمعنىٰ الإبراهيمي الذي يُصلَّىٰ له ويُتَوسَّل إليه لطلب المغفرة (رغم وجود هذا الجانب في التيار الشعبي (البهاكتي))، بل هو الواقع النهائي غير المتجزئ.

---

١. هوستن سميث، أديان العالم، ص٤٧.

٢. براهمان: (كلمة سنسكريتية يقصد بها: الاسم الذي أطلقه معلمو وحكماء الأوبانيشاد علىٰ الموجود الأسمىٰ، وهم يجسدونه في الإله الخالق براهما، ويضعونه طرفا في ثالوث مقدس يتألق من براهما (الخالق) وفشنو (الحافظ) وشيفا (المدمر))، جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص٣١.

إنَّه الوجود الخالص، والوعي الخالص، والنعيم الخالص (سات-تشيت-أناندا).

العالم المتعدِّد الذي نراه بحواسنا - بكل ثنائياته: من خير وشر، وجود وعدم، ذات وموضوع - هو تعبير أو ظهور لهذه الوحدة الكامنة، بعبارة أخرىٰ، (الكل واحد في الجوهر)[١].

هذه الوحدة الوجودية وإدراكها تشكِّل الأساس الذي يُبنىٰ عليه تعريف كل من الإنسان والخلاص.

الركن الثاني: جوهر الإنسان - الذات الخالدة[٢] وسجن الجهل:

يرىٰ الفكر الهندوسي أنَّ الجوهر الحقيقي للإنسان - بل لكلِّ كائن حي - هو (آتمان)، الروح الفردية الخالدة، وهي غير النفس المتغيِّرة (التي تتأثَّر بالعواطف والأفكار)، ولا الجسد الفاني (الذي يتأثَّر بالجوع والمرض)، بل هي الشرارة الإلهية[٣] -الذات النقية- والتي حقيقتها واحدة مع (براهمان).

العبارة الشهيرة من الأوبانيشاد - (أنت ذاك)[٤] - تختزل هذه المقولة:

أنت (كآتمان) لست منفصلاً عن ذاك (البراهمان).

---

١. النص في الكتاب الديني الهندوسي (بهاغافاد غيتا): (أن الرب نفسه، الذي لا تشوبه شائبة، والمليء بالصفات المباركة التي لا تحصىٰ، يسكن داخليا في كل إنسان [٦-٩]. المصدر: The Bhagavad Gita: الفصل ٦ ، النص ٩، ص١٦٨.

٢. هوستن سميث، أديان العالم، ص٤٦.

٣. للتوسع أكثر في روح الانسان والاتحاد مع المطلق، يُنظر: د. أحمد شلبي، أديان الهند الكبرىٰ، ص٦١-٦٦.

٤. (أنت ذاك): عبارة محورية في فلسفة الفيدا تعني أنَّ جوهر الفرد هو نفسه جوهر الكون، فالإنسان مظهر مؤقت للوجود المطلق وليس مخلوقاً مستقلاً من العدم.

من هذا المنطلق[١]، تعرف المشكلة الوجودية الأساسية للإنسان لا علىٰ أنَّها (الخطيئة) كما في المسيحية، ولا علىٰ أنَّها انحراف عن (الفطرة) السليمة التي تحتاج تذكيراً وتنظيفاً كما في الإسلام، المشكلة الجوهرية في الرؤية الهندوسية هي الجهل (أفيديا).

الهدف الأسمىٰ للحياة الإنسانية في نظر الهندوسية، هو (تحرير الإنسان من هذا الجهل)، وهو تحرُّر يتحقَّق عبر (الوعي والإدراك الحقيقي) والمعرفة المباشرة (جنانا)، وليس عبر الطاعة أو الغفران فحسب، فعندما يدرك الإنسان - ليس عقلياً، بل روحياً ووجودياً - أنَّه واحد مع الكل، يسقط الوهم، وتتحرَّر الروح من عبودية التناسخ والتقمص، هذه الحالة من التحرُّر والاتِّحاد تسمَّىٰ (موكشا)، وهي الخلاص الفردي النهائي[٢]..

حيث النتيجة: ذوبان الهوية الفردية في المطلق الكلِّي، فيتحقَّق الخلاص والسلام النهائي، وتزول الرغبة، والخوف، والأنانية.

الركن الثالث: الزمن - الدائرة اللانهائية والعصور الأربعة:

يؤثِّر مفهوم الزمن في الهندوسية تأثيراً جذرياً علىٰ فكرة الخلاص[٣]، فبدلاً من الخط المستقيم المستمر عبر التاريخ (بداية - تاريخ - قيامة) السائد في الديانات السماوية، الزمن هنا (دائري ودوري)، الكون يمر عبر دورات لا نهائية من الخلق والبقاء والانحلال، والتي تُعرف بـ(كالبا)[٤]، وفي كل دورة تمر

١. جون كولر في كتاب (الفكر الشرقي القديم) يقول: (إن القوة العظمىٰ (براهمان) التي تمنح الكون طاقته، والطاقة الروحية للذات (آتمان) هما شيء واحد. وهذه الرؤية التي توحد بين الذات والحقيقة النهائية تقدم الأساس لمناهج التحرير)، ص٢٨.

٢. للتوسُّع أكثر في التحرُّر الفردي أو بمعنىٰ الخلاص والابتعاد عن العالم المادي، يُنظر: هالة أبو الفتوح، مفهوم الخلاص في الفكر الهندي، ص٢٠١-٢٠٥.

٣. للتوسع في العلاقة بين الزمن الدائري والتناسخ والخلاص، يُنظر: ديورانت، قصة الحضارة - الهند وجيرانها، ص٢١٣-٢٢٠.

٤. الكالبا (Kalpa): تمثل الدورة الزمنية الكونية الكبرىٰ (وليست دورة خاصة بالأفراد)، وهي ←

الإنسانية عبر أربعة عصور[١] (يوغا) متتالية تتدهور فيها الفضيلة تدريجياً:

١. عصر الحقيقة (Satya Yuga): تسود فيه الفضيلة الكاملة، والبشر أقرب إلىٰ المطلق، وهو العصر المثالي.

٢. عصر انحسار الفضيلة (Treta Yuga): يظهر فيه بعض الانقسام والفساد الطفيف.

٣. عصر الفساد (Dvapara Yuga): تزداد فيه الانقسامات الإنسانية والرغبات المادية، وتتقلص فيه الفضيلة والنقاء.

٤. عصر الظلام والجهل (Kali Yuga): وهو العصر الحالي[٢]؛ عصر الصراع والمادية والانحطاط الأخلاقي، وهو أقصر العصور وأكثرها ظلمة، حيث تطغىٰ المظاهر علىٰ الجوهر والرغبة علىٰ الحكمة والأنانية علىٰ الذات الكلية.

هذه العصور[٣] عبارة عن دورة كونية واحدة من مليارات الدورات، هذا المسار الدائري يجعل فكرة (نهاية العالم) أو (آخر الزمان) بالمفهوم الإبراهيمي النهائي بلا معنىٰ، ولذا يفهم الخلاص في الفلسفة الهندوسية علىٰ أنَّه ليس مجرَّد حدث مستقبلي يُنتظر في نهاية التاريخ، بل هو خروج من الزمن الدائري برمته.

←دورة وجودية كاملة تشمل مراحل خلق الكون وحفظه ثم فنائه. تُعادل (الكالبا) يوماً كاملاً في حياة الخالق (براهما)، وتُقدّر في الفلسفة الهندوسية بآلاف الملايين من السنين البشرية.

١. المصدر: ويكيبيديا، الموسوعة الإنجليزية، مادة (Yuga cycle)، المتاحة علىٰ الرابط:
https://en.wikipedia.org/wiki/Yuga_cycle

٢. وفق الاعتقاد الهندوسي: نحن نعيش في نهايته، فإن نهاية عصر (كالي يوغا) تشهد ظهور المخلص المنتظر (كالكي) لتطهير العالم وإعادة تأسيس قيم عصر الحقيقة، تمهيداً لبدء دورة كونية جديدة.

٣. تفاصيل العصور الأربعة والمدة الزمنية لكل عصر، يُنظر: فراس السواح، دين الإنسان، ص٢٥٦-٢٥٧.

تجلِّيات الخلاص:

١. الخلاص الفردي (التحرُّر): هو الهدف النهائي للحياة، وقد يتحقَّق في أيِّ لحظة (حتَّىٰ في العصر الحالي) عندما يدرك فيها السالك حقيقة وحدته مع البراهمان.

إنَّه انكشاف للحقيقة الأزلية، وإدراك أنَّ الذات (آتمان) كانت دوماً حرة وخالدة، ولم تكن أبداً مقيَّدة بواقع مادي إلَّا بوهمها، هذا الخلاص هو تحرُّر من الجهل[١]، وليس بالضرورة التخلُّص من (الشر) كقوة منفصلة، لأنَّ الشر في النهاية جزء من لعبة الوهم التي يجب تجاوزها، إنَّ الخلاص النهائي هو إدراك وحدة الوجود وانصهار النفس الفردية في المطلق، حيث (آتمان = براهمان).

٢. الخلاص الكوني (الترميمي والإصلاحي): علىٰ مستوىٰ البشرية، لا يوجد (خلاص نهائي) للكون، لأنَّ دوراته مستمرة، لكن داخل كل دورة، هناك آليات لتصحيح الانحراف الشديد والحفاظ علىٰ النظام (دارما).

أهم هذه الآليات هو ظهور (الأفاتار) التجسُّد الإلهي، ففي كلِّ مرة يختل فيها التوازن الكوني بسبب الظلم والفوضىٰ والفساد، يتجسَّد الإله فيشنو (حافظ الكون) بشكل ما ليدمر الشر ويعيد النظام.

المخلِّص المنتظر (كالكي):

(كالكي) هو التجسيد العاشر للإله فيشنو[٢] وفق النصوص البورانية

---

١. حسب النص في الكتاب الديني الهندوسي (بهاغافاد غيتا): (من يدرك عظمة جلالي وسيادتي إدراكاً صحيحاً، سيبلغ الكمال في التأمل الثابت. لا ينبغي أن يكون هناك شك في ذلك [٧-١٠].. في هذا النص يعلن أن من يفهم عظمته وسيادته فهماً صحيحاً، سينمي القدرة علىٰ التأمل المركز فيه، والذي يؤدي في النهاية إلىٰ التحرر - المصدر: The Bhagavad Gita: الفصل ١٠، النص ٧، ص٢٤٨.

٢. في الرؤية الهندوسية: الإله فيشنو تجسد في ٩ صور (Avatars) عبر العصور السابقة لحماية القانون الكوني وإعادة التوازن. ويمكننا قراءة التجسيد الهندوسي بالفعل علىٰ أنَّه تمثيل بدائي للمقياس←

الهندوسية[١]، وهو الحافظ والمنقذ للكون، والمنتظر ظهوره في نهاية العصر الحالي، سيظهر راكباً حصاناً أبيض وحاملاً سيفاً مشتعلاً، ليقوم بدور المحارب والقاضي، وتتمثَّل مهمته في تطهير العالم من الفساد، وإبادة قوىٰ الشر، وإعادة تأسيس قيم (عصر الحقيقة) تمهيداً لبدء دورة كونية جديدة.

وهنا تبرز ثنائية فلسفية جوهرية: (كالكي) هو مصلح اجتماعي وأخلاقي يعيد التوازن الكوني في إطار الزمن الدوري، لكنه لا يمنح الخلاص النهائي (الموكشا) للأفراد، إذ يظل الخلاص إنجازاً فردياً داخلياً.

←الصاعد للخلق الإلهي، من أدنىٰ مستويات الحياة عبر الأسماك والسلحفاة والخنزير إلىٰ كمال البشرية، وهذا بالضبط هو نظرية التطور الحديثة. ومن أبرز تجلياته الشهيرة:

١ – ماتسيا (Matsya – السمكة): ترمز لبداية الخلق وحماية المعرفة من الفناء.

٢ – كورما (Kurma – السلحفاة): ترمز للدعم الخفي والثبات في عملية الخلق.

٣ – فاراها (Varaha – الخنزير البري): يرمز لانتشال الوجود من غياهب الفوضىٰ.

٤ – ناراسيمها (Narasimha – الإنسان الأسد): يرمز لانتصار الحق والقوة الإلهية علىٰ الطغيان.

٥ – فامانا (Vamana – القزم): يرمز لتواضع الذكاء الإلهي في مواجهة غطرسة الأنا.

٦ – باراشوراما (Parashurama – الناسك المحارب): يرمز لتطهير العالم من الفساد والظلم.

٧ – راما (Rama – الأمير المثالي): يمثل النموذج الأسمىٰ للفضيلة والنظام الاجتماعي.

٨ – كريشنا (Krishna – المعلم الإلهي): يرمز للحكمة المتجسدة والمحبة الشاملة.

٩ – بوذا (Buddha – الحكيم المستنير): يرمز للزهد والرحمة وإعادة التوازن. ويُعتبر في التقاليد (الفايشنافية) أنَّ بوذا كان تجسداً إلهياً.

١٠ – كالكي (Kalki – المخلص المنتظر): يرمز للخلاص الكوني، وختام دورة زمنية وبداية أخرىٰ.

للتوسع ارجع للمصادر التالية:

– Avatar and Incarnation, By: Geoffrey Parrinder, Publisher: Oxford University Press (UK), 1997.

– كولر جون، الفكر الشرقي القديم، ص١٤٥–١٤٧؛ ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، باللغة الإنجليزية:

-saVETONTOOF-eton_etic#aratavahsaD/ikiw/gro.aidepikiw.ne//:sptth

9-41-217102inaw

١. للتوسع أكثر في فيشنو وتجسيداته العشرة، يُنظر: بارندر جفري، المعتقدات الدينية لدىٰ الشعوب، ص١٤١–١٤٣.

إذاً (المخلِّص) يهيئ البيئة الخارجية المناسبة لازدهار الروحانية، لكن التحرُّر النهائي يبقىٰ رهناً بوعي الإنسان وسعيه الذاتي.

أُفق الخلاص: تقاطعات (كالكي) و(المهدوية) رؤية نقدية مقارنة:

بينما ظلَّ الخلاص الفردي جوهر المسار التقليدي في الهندوسية، أفرزت نصوص (البورانا) المتأخِّرة عقيدة (المخلِّص) (كالكي)، لتمثِّل تحوُّلاً من الانعتاق الذاتي إلىٰ التطلُّع لترميم العدالة الكونية، هذه الثنائية (فردي/ جماعي) تضعنا أمام منطقة مختلفة مع (المهدوية) في الفكر الإسلامي.

وانطلاقاً من ذلك، يمكن بناء مقارنة استراتيجية مع الرؤية الإسلامية وفق المحاور الآتية:

١. طبيعة المشكلة والخلاص:

- الهندوسية: المشكلة هي جهل ووهم وجودي (أفيديا)، والخلاص هو كشف للحقيقة الأزلية (الوحدة مع المطلق).

- الإسلام (المهدوية): المشكلة هي انحراف عن شريعة الله، والخلاص هو إصلاح واقعي وتحقيق للعدل الإلهي في مرحلة تاريخية فاصلة (آخر الزمان).

٢. دور المخلص:

- كالكي: تجلٍّ إلهي ينهي دورة زمنية لتبدأ غيرها، تركيزه ينصبُّ علىٰ التطهير المادي والقصاص في نهاية الدورة (العصر الحالي)، وخلاصه مؤقت ودوري.

- المهدي عليه السلام: إنسان معصوم يبعثه الله في آخر الزمان (التاريخ الخطي) ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً، ويقود البشرية نحو غايتها الكبرىٰ بنشر التوحيد والعدل الشامل، وخلاصه نهائي وغائي في مسار التاريخ.

٣. الزمن والغاية:

- الهندوسية: زمن دائري بلا غاية نهائية للتاريخ، والخلاص الفردي هو انفصال عن الزمن.

- الإسلام: زمن خطي يتَّجه نحو غاية (القيامة)، والخلاص الجماعي هو ذروة المسار البشري بتطبيق الاستخلاف والعدل على الأرض، تمهيداً لتحقيق العبودية الكاملة لله.

٤. البعد الاستراتيجي:

- ينتج النموذج الهندوسي رؤية سلبية تجاه التغيير الاجتماعي، لكون العالم وهماً وزائلاً، والشر جزء من الجهل، والدورة ستكرّر نفسها حتماً، والتركيز على الخلاص الفردي يضعف الدافع نحو التغيير الجذري.

- ينتج النموذج المهدوي رؤية تاريخية فاعلة، تحفِّز على الإصلاح والعمل استباقاً لتحقيق الوعد الإلهي، فهو مشروع لتغيير العالم لا الهروب منه.

النتيجة الفكرية: يقدم النموذج الهندوسي خلاصاً عبر (المعرفة الداخلية)، بينما يقدّم النموذج الإسلامي خلاصاً عبر (العمل والانتظار الإيجابي)، إنَّ الفهم الشامل لكلا النموذجين لا يثري الحوار والتعارف بين الحضارات فحسب، بل يكشف عن تنوع الإجابات البشرية الأساسية عن الأسئلة الكبرى: الوجود والمعاناة والخلاص والمستقبل والمصير.

مراحل التطوُّر التاريخي لفكرة الخلاص الهندوسية[١]: من الطقوسية إلىٰ المخلِّص الكوني:

يمكن تتبُّع تطوُّر مفهوم الخلاص[٢] في الفكر الهندوسي، الذي خضع لتحوُّلات جذرية عبر القرون، في أربع مراحل[٣] تاريخية كبرىٰ، تعكس هذه المراحل تحولاً تدريجياً وتراكمياً، من خلاص جماعي طقوسي يهدف للرفاه الدنيوي، إلىٰ خلاص فردي وجودي، وصولاً إلىٰ فكرة المخلِّص الكوني الحتمي، برزت خلالها تعديلات وتغيرات دينية وفلسفية واجتماعية كبيرة.

وفيما يلي تفصيل منهجي لهذه المراحل:

المرحلة الأولىٰ[٤]: الخلاص عبر الطقوس والتضحية (عصر نصوص الفيدا)، حوالي ١٥٠٠ - ٨٠٠ قبل الميلاد[٥].

- الطبيعة: طقسية، جماعية، مادية، حيث كان التركيز علىٰ علاقة تبادلية مع الآلهة (مثل إندرا وأغني).

- الخلاص: يكتسب عبر القرابين[٦] والأداء الطقسي الكامل لإرضاء الآلهة واستجلاب بركاتها.

---

١. A history of Indian Philosophy, Volume ٢ & ١, Author: Dasgupta, Surendranath, (١٩٥٢-١٨٨٥).

٢. للتوسع أكثر في أثر الأحداث السياسية في الفكر الديني والفلسفي، يُنظر: هالة أبو الفتوح، مفهوم الخلاص في الفكر الهندي، ص٣٧-٤٥.

٣. انظر كتاب: مقدمة في تاريخ الأديان، من ص٢٤٧-٢٥١؛ للمزيد حول الخط الزمني للهندوسية، أنظر كتاب: الهندوسية، كيم نوت، ص١٢٥- ١٢٨.

٤. الجدول التاريخي الزمني للتطورات الفكرية في هذه المرحلة، يُنظر: سو هاميلتون، الفلسفة الهندية، ص٦٤.

٥. للتوسع أكثر في مراحل الفكر الهندي وخصائصه الفلسفية، يُنظر: هالة أبو الفتوح، مفهوم الخلاص في الفكر الهندي، ص٥١-٥٢.

٦. سو هاميلتون، الفلسفة الهندية، ص٣٠-٣٥.

– الهدف: تحقيق الرفاهية الدنيوية (الغنىٰ، النصر، الذرية)، وضمان مكان في (عالم الأسلاف)[١] بعد الموت.

– الطابع العام: خلاص موجه عبر الكهنة (البراهمة)، خارجي ومشروط بالأداء الطقسي الصحيح.

– ملاحظة نقدية: في هذه الحقبة، لم يكن المفهوم الفلسفي العميق للتحرر قد تبلور بعد، فلم يظهر مصطلح (الموكشا) بوضوح، بل كان الهاجس هو البقاء والاستقرار المادي.

المرحلة الثانية[٢]: الانقلاب الفلسفي والخلاص الفردي (عصر نصوص الأوبانيشاد)، حوالي ٨٠٠–٢٠٠ قبل الميلاد.

– الطبيعة: فلسفية، وجودية، فردية، إذ حدث تحول جذري من الخارج (الطقوس) إلىٰ الداخل (المعرفة).

– الخلاص: يكتسب عبر المعرفة والإدراك الحدسي للوحدة بين الذات (آتمان) والمطلق (براهمان).

– الهدف: التحرُّر الفردي النهائي (موكشا) من دورة التناسخ والمعاناة (سمسارا).

– السمة البارزة: خلاص نخبوي فردي يعتمد علىٰ الزهد والتأمُّل واعتزال المجتمع ورفض التاريخ.

– التحوُّل المفاهيمي: أصبح الخلاص انعتاقاً فردياً يعتمد علىٰ الزهد، وصار الخلود في (الجنة المؤقتة) يُعد فخاً يمنع الوصول إلىٰ الحقيقة المطلقة، ولادة الخطوط المركزية للهندوسية الفلسفية.

---

١. للتوسع أكثر في رابطة مع الأسلاف، يُنظر: بارندر جفري، المعتقدات الدينية لدىٰ الشعوب، ص١١٢–١١٣.

٢. الجدول التاريخي الزمني للتطورات الفكرية في هذه المرحلة، يُنظر: سو هاميلتون، الفلسفة الهندية، ص٧٦.

المرحلة الثالثة[١]: التوليف والشمولية (عصر نصوص الملاحم والغيتا)، حوالي ٢٠٠ قبل الميلاد - ٥٠٠ ميلادي.

- الطبيعة: توليفية، جماهيرية، وعملية، تهدف للتوفيق بين الفلسفة العالية والاحتياجات العامة للبشر، واستيعاب التحديات الفكرية (كالبوذية).

- الخلاص: يكتسب عبر ثلاثة مسالك: المعرفة، والعمل النزيه، والإخلاص القلبي (بهاكتي).

- الهدف: التركيز على أداء الواجب الدنيوي بتجرد كطريق للخلاص، مع الحفاظ على النظام الكوني (دارما).

- الطابع العام: ظهور فكرة المخلّص (الأفاتار) كتدخل إلهي دوري لإعادة التوازن للكون.

- الأثر الاجتماعي: أصبح الخلاص متاحاً لكلِّ الطبقات عبر أداء الواجب الاجتماعي بتجرُّد، ولم يعد حكراً على النساك.

المرحلة الرابعة[٢]: تبلور الخلاص الكوني والانتظار (عصر نصوص البورانا)، من حوالي ٥٠٠ ميلادي فصاعداً.

- الطبيعة: غيبيّة، أسطورية، وجماعية، حيث تبلورت فكرة (النهاية) في فترات الاضطرابات التاريخية الكبرى.

- الخلاص: معلّق بحدث مستقبلي خارجي، متمثِّل في مجيء المخلِّص الكوني (كالكي).

- الهدف: إنهاء عصر الظلام (الحالي)، والتطهير الكوني الشامل على يد كالكي، ولكن ليس خلاص الأفراد.

---

١. الجدول التاريخي الزمني للتطورات الفكرية في هذه المرحلة، يُنظر: سو هاميلتون، الفلسفة الهندية، ص٩٠-٩١.

٢. الجدول التاريخي الزمني للتطورات الفكرية في هذه المرحلة، يُنظر: سو هاميلتون، الفلسفة الهندية، ص١٢٣.

– التحوُّل الاستراتيجي: اكتملت الثنائية بين الخلاص الفردي الداخلي (موكشا)، والخلاص الجماعي الخارجي (كالكي).

– النتيجة الواقعية: عززت الفكرة حالة من القبول القدري، حيث ينظر إلىٰ فساد الواقع كقدر محتوم لا يرفعه إلَّا المخلص الإلهي المنتظر، دون وجود مشروع تمهيدي فاعل.

الهندوسية ومسألة انتظار المخلّص: قراءة استراتيجية في ضوء المهدوية:

تتمثَّل فكرة انتظار المخلِّص المستقبلي (كالكي)، رغم طابعها الأسطوري والغيبي، بأنَّها تحمل في طيَّاتها أبعاداً نفسية واجتماعية عميقة، تستحق التحليل والقراءة النقدية، خاصة عند مقارنتها بالرؤية المهدوية الإسلامية.

أوَّلاً: المخلِّص (كالكي) في الثقافة الهندوسية:

لفهم مسألة انتظار المخلِّص في الهندوسية، يجب إدراك أنَّ التركيز الفلسفي قائم في الأساس علىٰ الخلاص الفردي (موكشا) كهدف أسمىٰ، مما يجعل فكرة المخلص الكوني المستقبلي ضعيفة التأثير وهامشية في الممارسة الدينية اليومية، ولا تظهر إلَّا في فترات الأزمات الكبرىٰ.

ومن هذا المنطلق، فإنَّ نصوص كالكي في البورانا تقرأ كجزء من التراث الأسطوري والملحمي، وليس كعقيدة حركية تشكل الهوية وتوجه السلوك اليومي.

فالانتظار الهندوسي تأمُّلي وبعيد المدىٰ، وغير مرتبط بعلامات زمنية محدَّدة أو استعداد عملي ملموس، مما يوضِّح طبيعته الصامتة والمؤجّلة.

ثانياً: التأثير علىٰ الفرد الهندوسي:

– **الشعور بالانفصال عن الزمن الواقعي:** لأنَّ الخلاص مؤجَّل لأمد غير مسمَّىٰ، لا يشعر الفرد بأنَّ خَلاصه مرتبط بعمل جماعي أو إصلاحي عاجل.

- **نزعة الانكفاء الداخلي والسلبية**[1] **تجاه قضايا الأُمَّة والعالم**: التركيز على الخلاص الفردي (موكشا)، يضعف دافعية الفرد نحو التغيير الاجتماعي والسياسي.

- **التسليم بالقدر الكوني**: يعزِّز المفهوم القناعة بأنَّ الظلم والفساد حتمية كونية في هذا العصر، مما يحول الانتظار إلىٰ مبرّر لتقبُّل الواقع السلبي.

ثالثاً: التأثير علىٰ المجتمع الهندوسي:

- **ضعف الحراك الاجتماعي والسياسي المرتبط بالخلاص**: لا توجد حركات تغييرية فاعلة تخلق برنامجاً عملياً لتمهيد مجيء (كالكي).

- **الاستخدام السياسي النادر**: تاريخياً، استُدعيت صورة كالكي في لحظات استثنائية (كالاحتلال البريطاني) كرمز لمقاومة الظلم، لكنها بقيت استعارات مؤقتة لا أساساً لعقيدة انتظار دائمة.

- **تعزيز النموذج الدائري للزمن**: النظرة الدائرية تضفي شرعية علىٰ النظام القائم (حتَّىٰ إن كان جائراً) بوصفه جزءاً من مرحلة كونية حتمية، مما يبطئ من وتيرة الإصلاحات الهيكلية.

- **التأثير الإيجابي المحتمل**: يوفر المفهوم نوعاً من الاستقرار النفسي الجماعي في مواجهة الفساد، بوعد ضمني بأنَّ (القيم المثلىٰ) ستعود، حيث يُرىٰ الواقع الحالي كمرحلة طبيعية من دورة كونية ستصلح ذاتياً في الزمن الإلهي الطويل.

وعند المقاربة مع النموذج الإسلامي نجد أنَّ الانتظار مفهوم مركزي وفعال، يخلق ديناميكية إيجابية من العمل والإصلاح والتحفيز للتغيير، وله أبعاد اجتماعية وسياسية واضحة ساهمت في تشكيل حركات مقاومة كبرىٰ، بينما بقيت فكرة كالكي في الهندوسية، رغم رمزيتها، أسيرة الإطار الأسطوري دون أن تتحوَّل إلىٰ قوة تاريخية فاعلة.

١. للتوسع أكثر ووضع الهندوسية في الميزان، يُنظر: د. أحمد شلبي، أديان الهند الكبرىٰ، ص١٠١-١٠٢.

ما الأسباب الاستراتيجية الكامنة وراء فشل فكرة انتظار (كالكي) في التحوُّل إلىٰ قوة حضارية فاعلة في الهندوسية؟

يعود هذا العجز إلىٰ عدَّة أسباب جوهرية جعلت الفكرة حبيسة النص والأساطير، وأبرزها:

- الهيمنة الفلسفية للنموذج الفردي: طغيان هدف (الموكشا) (الخلاص الفردي) علىٰ أي مشروع خلاص جماعي.

- اللامركزية المفرطة: غياب سلطة دينية مركزية تبلور العقيدة وتوجه الطاقة الجماعية نحو هدف انتظاري موحد.

- اللاغاية للتاريخ: مما يفقد فكرة (التمهيد للمخلّص) أي إلحاح أو أهمية قصوىٰ.

- الطابع غير السياسي للدين: الهندوسية التقليدية لا تقدّم نموذجاً تشريعياً لنظام حكم ديني يُنتظر، فـ(كالكي) يصور كـ(تجلٍ إلهي) ومصلح أخلاقي أكثر منه مؤسِّس دولة.

بالمقابل، نجح النموذج المهدوي الإسلامي في التحوُّل إلىٰ قوة تاريخية محركة لأنَّه:

- عقيدة مركزية: مرتبطة بمبدأ الإمامة في الشريعة الإسلامية.

- زمني خطي وغائي: يعطي التاريخ معنىٰ والانتظار هدفاً مُلحاً.

- الاستناد لفقه عملي: يواكب المراحل الانتقالية المختلفة (كالغيبة، والسفارة، والنيابة العامة، والاجتهاد) محولاً الانتظار إلىٰ مشروع عمل، لا حالة سلبية.

وهكذا، بينما تقدّم الهندوسية نموذجاً تأمُّلياً يريح الفرد من عبء التاريخ، فإنَّها تدفع الثمن في ضعف الطاقة الجماعية التغييرية المرتبطة بثقافة الانتظار، وهذا يفسِّر من منظور استراتيجي، لماذا بقيت فكرة كالكي

(أسطورة جميلة) في الخلفية الثقافية فقط، ولم تتحوَّل أبداً إلىٰ برنامج حياة أو مشروع نهضوي.

التجليات الشعبية: تجسيد فكرة (كالكي) في السياق الهندوسي عبر التاريخ:

في السياق الهندوسي، يلاحظ ندرة البروز الصريح بلقب (كالكي) بشكل مباشر وموسع، وذلك لأنَّ العقيدة التقليدية ترىٰ ظهوره تجلياً إلهياً وحدثاً مستقبلياً محتوماً، ومع ذلك، شهد التاريخ الهندوسي عبر عصوره المختلفة ظهور شخصيات عديدة ادَّعت أو نسبت إليها صفات كالكي أو تم تفسير أفعالها في إطار هذه النبوءة، وغالباً ما حدث ذلك في فترات الأزمات الاجتماعية والسياسية الكبرىٰ، وقد استندت هذه الادِّعاءات إلىٰ تأويلات لنصوص التراث الديني، ومحاولات لربط الرمز الأسطوري بالواقع المعاش.

وفيما يلي استعراض لأبرز هذه الحالات التاريخية[1]:

أوَّلاً: العصور القديمة:

لا توجد سجلات تاريخية واضحة عن مدَّعين بارزين في فترة العصور الفيدية أو ما قبل الميلاد، حيث إنَّ مفهوم (كالكي) كان لا يزال في طور التبلور ضمن النصوص البورانية التي كتبت تقريباً بين القرنين الثالث والسابع الميلاديين، ولم يتحول بعد إلىٰ رمز خلاصي شعبي يمكن الادِّعاء به.

ولذا لم تعرف هذه الحقبة شخصيات بعينها ادَّعت هذا الدور، بل كان الهاجس الشعبي آنذاك منصباً علىٰ البقاء والاستقرار المادي.

ثانياً: العصور الوسطىٰ (القرن ١٠-١٧م):

ظهرت بعض الإشارات خلال بداية الوجود الإسلامي لشبه القارة، حيث يشير بعض المؤرِّخين إلىٰ شخصيات مثل:

1. Modern Religious Movement in India, By: J.N.Farquhar, (NY - USA).

- سري تشايتانيا (١٤٨٦-١٥٣٤م): مؤسس حركة (غوديا فايشنافا)، لم يدَّع صراحة أنَّه (كالكي)، لكن بعض أتباعه رأوا فيه لاحقاً تجسيداً للإله فيشنو، وقد قادت ظروف ظهوره في خضم التحوُّلات الاجتماعية إلىٰ تفسيرات ربطته بفكرة المنقذ، وإن لم يكن ذلك شائعاً بشكل رسمي.

- أنصار حركة بهاكتي: في هذه المرحلة، بدأ ينظر لبعض الزهاد والمصلحين علىٰ أنَّهم تجليات لروح كالكي، دون الادِّعاء الصريح بذلك، لكنَّهم شكلوا نماذج روحية استلهمت صورة المخلِّص لتجاوز الجمود الطبقي.

ثالثاً: فترة الاستعمار (القرن ١٨ - منتصف القرن ٢٠):

شهدت هذه الفترة تصاعداً في الحركات الخلاصية الهندوسية، في إطار مقاومة الاحتلال البريطاني، ومن أبرز الحالات[1]:

- كالاكي كريشنا (بين ١٨٧٠-١٨٨٠م): في ولاية تاميل نادو، زعم أنَّه تجسد لـ(كالكي) جاء ليطهّر الهندوسية من الفساد والطبقية، ودعا إلىٰ البساطة الدينية ورفض السلطة الكهنوتية، ورغم محدودية تأثير حركته، إلَّا أنَّها مثَّلت صرخة احتجاجية مبكرة.

- ديانند ساراسواتي (١٨٢٤-١٨٨٣م): مؤسِّس حركة (آريا سماج)، لم يدَّع أنَّه كالكي، لكنَّه طرح في كتاباته أنَّ ظهور المخلص سيكون وشيكاً، وربطه بضرورة الإصلاح الديني والاجتماعي.

- ساي بابا من شيردي[2] (١٨٣٨-١٩١٨م): رغم عدم إعلانه الصريح، إلَّا أنَّ أتباعه في القرن العشرين نسبوا إليه خصائص المخلص بوصفه (مظهراً إلهياً)، وبعد وفاته، عدَّه كثيرون (كالكي الرمزي)، ولا يزال له تأثير واسع جداً بين الطبقات الشعبية، ويقدَّر أتباعه بالملايين حالياً.

1. A History of Modern India, By: Ishita Banerjee-Dube, U K.

2. The Life and Teachings of Sai Baba of Shirdi, By: Antonio Rigopoulos, USA.

- تمرد السانياسي والفلاحين (أواخر القرن ١٨ - أوائل القرن ١٩): خلال المقاومة ضد شركة الهند الشرقية البريطانية، انتشرت نبوءات عن قرب ظهور (المنقذ) الذي سيطرد الأجانب، وادَّعىٰ بعض القادة، مثل (موندرا كازاري) -قبض عليه البريطانيون عام ١٨٩٣م- أنَّه تجسيد لـ(كالكي) القادم لتحرير الهند من الحكم الأجنبي.

- سوامي فيفي كاناندا (١٨٦٣-١٩٠٢ م): رغم عدم ادِّعائه ذلك، إلَّا أنَّ خطابه الوطني القوي قاد بعض المريدين المتحمسين إلىٰ عدِّه (تمهيداً) للمنقذ المنتظر.

- سوامي دايانند (أواخر القرن ١٩): عدَّه أتباعه أنَّ دعوته لإحياء تعاليم الفيدا ومحاربة الخرافات هي تمهيد لظهور (كالكي)، أو أنَّه التجسيد الرمزي له في العصر الحديث.

رابعاً: الهند والعالم المعاصر (القرن ٢٠-٢١):

ظهرت شخصيات معاصرة نسبت إليها صفة (كالكي) في سياقات مختلفة، أبرزها:

- سري ساتيا ساي بابا[1] (١٩٢٦-٢٠١١ م): روج أتباعه لفكرة أنَّ سلسلة تجسيداته (ساي بابا الأقدم، ساتيا ساي بابا، وبرينافا ساي بابا) تتوافق مع الأفاتارات العشرة لفيشنو، وأنَّه التجسيد النهائي (كالكي)، رغم رفض التيارات الدينية التقليدية لهذا الربط.

- سري كاليك بهاجوان (مولود ١٩٤٩): مؤسِّس حركة (أمّا باغافان)، يلقبه أتباعه بـ(كالكي) ويؤمنون أنَّه جاء ليقود البشرية نحو عصر جديد من الوعي الروحي.

١. In the Presence of Sai Baba: Body, City, and Memory in a Global Religious Movement, by: Smriti Srinivas.

- جماعات العصر الجديد: تبنَّت جاليات هندوسية في بعض الدول الأوربية (مثل: ألمانيا والنمسا وبريطانيا والولايات المتحدة) صورة (كالكي) كرمز للمخلِّص القادم من الشرق، وانتشرت عبر وسائل التواصل مزاعم هامشية حول ولادته السرية في (الهيمالايا)، وقرب إعلانه عن نفسه.

في إطار الشارع الهندوسي:

يبيِّن هذا الاستعراض التاريخي كيف أنَّ فكرة المخلِّص الموعود (كالكي) تم تفعيلها في الثقافة الهندوسية بشكل محدود كرمز احتجاجي أو أمل خلاصي في لحظات الاضطهاد والأزمات الوطنية (خاصة خلال الاستعمار)، لكنها نادراً ما تحوَّلت إلىٰ حركات جماهيرية منظَّمة أو ادِّعاءات مؤسسية راسخة.

مما يؤكِّد أنَّ الفطرة الإنسانية المتشوِّقة للخلاص والمخلِّص موجودة في الوجدان الهندي، وتشكِّل جزءاً من الثقافة الشعبية، لكن التعبير عنها عبر (كالكي) ظلَّ ثانوياً، بسبب هيمنة النموذج الفلسفي للخلاص الفردي (موكشا)، والطبيعة المؤجَّلة والبُعد الأسطوري للنبوءة في الثقافة الدينية السائدة.

الأسباب والدوافع الكامنة وراء ادِّعاء (كالكي):

١- **الاضطراب الاجتماعي والديني**: يحدث الادِّعاء غالباً في فترات الانحلال الأخلاقي أو التخلخل الديني، حين يشعر الناس بأنَّ المنظومة القيمية قد انهارت، وأنَّ القوىٰ الشريرة باتت تهيمن علىٰ المشهد العام، في مثل هذه السياقات، يبرز (كالكي) كرمز للأمل والتطهير الشامل والعودة إلىٰ (عصر الحقيقة)، مما يفسح المجال لمدَّعين يزعمون أنَّهم التجسيد الأرضي لهذه النبوءة لملء الفراغ الروحي.

٢- **مقاومة الاحتلال والاستعمار**: خلال الحقبة الاستعمارية (خصوصاً البريطانية ما بين القرن ١٨ ومنتصف القرن ٢٠)[١]، استخدم مفهوم (كالكي) كأداة في الخطاب المقاوم، حيث تمرَّدت بعض الحركات على البريطانيين مدَّعية أنَّ (كالكي) قد ظهر فعلياً، وأنَّ أوان (دحر الظلم) قد حان بظهور المخلِّص، مما جعل من العقيدة الدينية وقوداً لاستعادة السيادة الوطنية والكرامة المسلوبة.

٣- **الصراع الطبقي**[٢] **والاجتماعي**: دفعت التراتبية الطبقية المتجذرة في المجتمع الهندوسي بعض القادة من الطبقات الدنيا أو المهمشة إلىٰ ادِّعاء صفة (كالكي)، وذلك لتبرير ثورتهم علىٰ الطبقة (البراهمية) المتحكِّمة في الشأن الديني والمكانة الاجتماعية، فـ(كالكي) باعتباره المطهِّر للأرض، يصبح أداة رمزية لإعادة توزيع السلطة الروحية والاجتماعية وإنصاف المظلومين.

٤- **السمات الشخصية والاضطرابات النفسية**: بعض الأفراد الذين امتلكوا كاريزما دينية وشعبية، أو مرّوا بتجارب روحية غامضة، صدقوا -أو أقنعوا أتباعهم- بأنَّهم تجلٍّ إلهي، وفي حالات أخرىٰ، يشير بعض الباحثين إلىٰ ارتباط هذه الادِّعاءات باضطرابات نرجسية أو أوهام العظمة، التي تجد بيئة خصبة في الأوساط الأكثر حاجة للأمل.

رد الفعل التقليدي والمؤسَّسي:

- **الرفض من قِبل الكهنة (البراهمة) والسلطات الدينية**: دائماً ما تعدّ المؤسسة الدينية الرسمية هذه الادِّعاءات هرطقة أو خروجاً عن الثوابت، وذلك لأنَّ النصوص المقدَّسة تؤكِّد أنَّ (كالكي) سيعلن عن نفسه بآيات

١. للتوسُّع أكثر في حضارة الهند وبريطانيا، يُنظر: ج. ت. جارات، تراث الهند، ص٢٨٣-٢٩٩.

٢. للتوسع أكثر في نظام الطبقات الشهير في الهندوسية، يُنظر: هوستن سميث، أديان العالم، ص٩٦-١٠٣.

كونية وقوة إلهية قاهرة لا تقبل اللبس، ولن يحتاج إلىٰ وساطة بشرية أو تبشير دعائي للتعريف به.

- **ضعف الاستمرارية**: تفتقر معظم هذه الحركات إلىٰ التنظيم الهيكلي والديمومة، إذ غالباً ما تخبو جذوتها بوفاة المدَّعي أو نتيجة الضغوط السياسية والدينية، مما يحول دون تحولها إلىٰ مؤسسة دينية عابرة للأجيال.

- **الاستثناء النسبي**: نجحت بعض الشخصيات مثل (ساي بابا) في الحفاظ علىٰ أثرها لأنَّها لم تعلن صراحة عن كونها (كالكي)، بل تركت مساحة من الغموض وباب التفسير مفتوحاً أمام مريديها، مما جنَّبها الصِدام المباشر مع المؤسسة الدينية التقليدية.

واستناداً إلىٰ ما سبق: تظل ظاهرة ادِّعاء لقب (كالكي) في التاريخ الهندوسي ظاهرة هامشية، تعكس لحظات يأس واحتقان اجتماعي أكثر مما تعبر عن تيار فكري أو ديني راسخ، إنَّ غياب الإطار العقائدي المنظّم لاستيعاب فكرة (المخلص المعاصر)، بالإضافة إلىٰ الطبيعة الفلسفية للخلاص الهندوسي، جعلت هذه الظاهرة أقل تأثيراً وحضوراً بكثير من نظيراتها في الأديان الإبراهيمية.

أثر مفهوم الخلاص الكوني (كالكي) في بنية الأُمَّة والمجتمع الهندي:

يبرز (كالكي)، المخلِّص المنتظر في الوجدان الهندوسي كرمز لخلاص يتأسَّس علىٰ (القطيعة الشاملة) مع الواقع، لا علىٰ الإصلاح البشري التدريجي، وهذا التصوُّر له آثار بعيدة المدىٰ تتجاوز الإطار الديني لتطال البنىٰ الاجتماعية والسياسية ومسار الحضارة الهندية برمَّتها.

يمكن إجمال التأثير لهذه الرؤية في النتائج المفصلية التالية:

١ - تعطيل الفعل الإصلاحي الجذري لانتظار الحل الخارجي.

٢ - إضفاء الشرعية الرمزية علىٰ اللامساواة الاجتماعية القائمة.

٣ - إضعاف الفكر السياسي المؤسَّسي المبني علىٰ مفاهيم العدالة الإنسانية والمسؤولية الجماعية.

بناءً علىٰ ما تقدَّم، فإنَّ (كالكي) بوصفه خلاصاً كونياً، قد سلب من المجتمع الهندي روح المبادرة التاريخية لفترات طويلة.

ومن ثم، فإنَّ التحدِّي الأكبر أمام الهند المعاصرة ليس في الإيمان به أو نفيه، بل في إعادة صياغة مفهوم الخلاص بما يتناسب مع متطلَّبات الحياة الحديثة، أي الانتقال من (نهاية كونية مغلقة) إلىٰ (أُفق أخلاقي مفتوح) يعيد للإنسان فاعليته وللمجتمع مسؤولية التغيير، بما يتناسب مع مقتضيات العصر الحديث.

قيمة فكرة الخلاص الهندوسي في ميزان الحضارة:

تكشف هذه القراءة النقدية أنَّ الخلاص ليس فكرة دينية مجرَّدة، بل قاعدة فكرية عميقة تنظّم علاقة الإنسان بالتاريخ والمجتمع والمستقبل، وأنَّ الفرق الجوهري عند المقارنة بين (كالكي) والمهدي عليه السلام لا يكمن في (هوية من سيظهر)، بل في طبيعة الفعل الذي ينتجه هذا الإيمان وأثره الراهن.

فعندما يتحوَّل مفهوم الخلاص إلىٰ انتظار سلبي (الكالكية)، يخبو التاريخ ويُقبل الواقع الفاسد كقدر محتوم، وعندما يتحوَّل الانتظار إلىٰ مسؤولية إيجابية (المهدوية)، يُصنع المستقبل وتقوىٰ دوافع الإصلاح.

إنَّ القيمة الحضارية العليا لأيِّ نموذج خلاصي لا تقاس بوعد النهاية المنتظرة، بل بقدرته علىٰ إحياء الضمير الإنساني وتنظيم الحياة الواقعية قبل تحقق الوعد.

وهـذا بالضبـط مـا يجعـل التعـرُّف عـلىٰ الرؤيـة المهدويـة الإسـلامية درساً استـراتيجياً ثمينـاً: فالخـلاص الناجـح هـو الـذي يرفـض تبريـر الظلـم ولا يعفـي الإنسـان مـن كتابـة تاريخـه بيـده.

المهدوية كأُفق إنساني للخلاص: واقعية المشروع الحضاري ومأزق الأسطورة:

تتصـدَّر العقيـدة المهدويـة المشـهد الفكـري العالمـي كمـشروع خـلاصي فريـد يجمـع بـين (كرامـة الإنسـان، والعدالـة المطلقـة، وفلسـفة التاريـخ، وخلافـة الأرض) في نسـق بنيـوي واحـد، ولا يـكاد يوجـد لهـا نظـير في تماسـكه الفكـري وعمقـه الغيبـي وارتباطـه الوثيـق بالواقـع التاريخـي، فهـي لا تكتفـي بمعالجـة القلـق الوجـودي للفـرد (كـما في بعـض المذاهـب الروحانيـة الانعزاليـة)، بـل تقـدّم رؤيـة اسـتراتيجية شـاملة لإعـادة صياغـة الحضـارة الإنسـانية عـلىٰ أُسـس (التوحيـد والعـدل).

إنَّ الربـط الوثيـق بـين التوحيـد والعـدل في المهدويـة ليـس ربطـاً أخلاقيـاً مجـرَّداً، بـل هـو ربـط واقعـي، فالعـدل الاجتماعـي والاقتصـادي والسـياسي هـو التجسُّـد العمـلي لحقيقـة التوحيـد في حيـاة النـاس.

بهـذا المعنـىٰ، تكتسـب المهدويـة بُعـداً إنسـانياً عالميـاً، فهـي ليسـت مجـرَّد فكـرة مسـتقبلية تُنتَظـر، بـل هـي (منهـج حيـاة) ونسـق قيمـي يمنـح للتاريـخ معنـاه، ويطـرح نفسـه كبديـل حضـاري عمـلي للأزمـات التـي تعصـف بالإنسـانية المعـاصرة.

تتميَّـز المهدويـة عـن غيرهـا مـن النـماذج الخلاصيـة بـأنَّ الإنسـان فيهـا (فاعـل وشريـك) في صناعـة التاريـخ ومعادلـة الخـلاص، وليـس مجـرَّد متفـرِّج ينتظـر المعجـزة.

فالظهـور المقـدَّس للإمـام المهـدي عجل الله فرجه لا يقـع خـارج سـياق السُـنن، ولا يفـرض عـلىٰ الواقـع بـلا مقدّمـات، بـل يـأتي تتويجـاً منطقيـاً لمسـار طويـل مـن

الصراع بين الحقِّ والباطل، وتراكم الوعي البشري بضرورة المصلح، وهذه الواقعية هي ما تجعل المهدوية تنسجم ببراعة مع:

١ - **وجدان الفطرة**: التي ترفض الظلم والجور رفضاً مطلقاً.

٢ - **برهان العقل**: الذي يحكم بضرورة انتصار العدالة النهائية.

٣ - **فلسفة التاريخ**: التي تفترض أنَّ للمسيرة البشرية غاية وهدفاً نهائياً.

٤ - **الإرشاد السماوي**: الذي يربط المصير البشري بالسلوك والعمل.

المهدوية كضرورة حضارية وحتمية تاريخية:

انطلاقاً من المقاربات التحليلية، تبرز المهدوية الإسلامية كنموذج حضاري[1] متكامل ومستقبل واعد للإنسانية.

إنَّ الإيمان بالمهدي عجل الله فرجه يُحدث تحوُّلاً جوهرياً على مستويين:

- **على الصعيد الفردي**: يمنح الإنسان توازناً نفسياً وأملاً محفزاً للعمل الجاد، محولاً الانتظار من مجرَّد تمنٍّ إلى دافع للإتقان.

- **على الصعيد المجتمعي**: يبني (النسق الحضاري المقاوم) الذي يرفض الخضوع للظلم بكلِّ أشكاله، ويؤسِّس لوعي مجتمعي يرفض الهزيمة التاريخية.

إنَّ المهدوية كرؤية خلاصية شاملة تتفوَّق لأنَّها النسق الوحيد الذي يجمع بين (الغيب الراسخ) و(الواقعية الإنسانية)، فالمهدي في العقيدة الإسلامية (الإمامية) ليس رمزاً أسطورياً، ولا مجازاً تعبيراً عن الخير، بل هو (حقيقة تاريخية)، وإنسان كامل، ومشروع قائد دولة عالمية.

بينما يقدّم الخيال الديني في حضارات أخرى خلاصاً منفصلاً عن الواقع، فعلى سبيل المثال، يقدّم الخيال الهندوسي صورة خلاص كوني يرتبط

١. للتوسع في موضوع المهدوية برؤية حضارية، يُنظر: مجتبى السادة، تعريف المهدوية للحضارات الأخرى، الفصل الرابع.

بتجسُّـد إلهـي خيـالي يطهـر الأرض مـن الـشرور دون مـشروع عمـلي للتمهيـد، هـذه الرؤيـة -رغـم رمزيتهـا- تفصـل الإنسـان عـن مسـؤوليته الزمنيـة والتاريخيـة، وتدعـوه للانفصـال عـن الواقـع باسـم الكونيـة والأسـطورة؛ فـلا توجـد آليـات عمليـة للتمهيـد، ولا حركـة جماعيـة فاعلـة تنتظـر ظهـور (كالكـي).

